﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مـن كـان الله معه، فلا يخاف درکًا ولا يخشى

بعد أن ذكرتِ الآيةُ السَّابقة لجوءَ موسى وهارون إلى ربّهما خوفًا من بطش فرعون وطغيانه؛ جاءت هذه الآيةُ ببيان طمأنةِ الله تعالى للرّسولين الكريمين، بأنّه معهما وأنّهما في معيّته وحفظه، بعدما أعلنا أنّهما يخافان أن يعاجلَهما فرعونُ بالعقاب، فقال لهما مطَمئِنًا: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسۡمَعُ﴾: (سمع) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ مِنَ النَّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمعًا[1]، والسَّمعُ: قوَّةٌ في الأُذن تُدْرَكُ بها المَسْموعات، وفِعله يُقالُ له: السَّمعُ أيضًا[2]، والجَمع أسماع، والسَّماعُ: ما سَمِعْتَ به فشاع وتُكُلِّمَ به، والسَّميعُ من صِفات الله وأسمائه[3]، والاسْتِماعُ: الإصغاء[4].

2) ﴿وَأَرَىٰ﴾: (رأى) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بِعَيْنٍ أو بَصيرَةٍ، فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمرِ، وجَمعُهُ الآراءُ[5]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئيِّ، والرَّأْيُ: اعتقادُ النَّفس أحدَ النَّقيضين عن غلبة الظَّنِّ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرى في المنام[6]، والرُّؤْيَةُ بالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(2) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (سمع).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (سمع).
(4) الرَّاغب، المفردات: (سمع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(6) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

معيّة الله نصرٌ وتأييدٌ، وهو معنا يسمع ويرى

في هذه الآية يُطَمئِنُ اللّهُ تعالى موسى وهارون بقوله لهما: لا تخافا مِن فِرعَونَ، إنَّني معكما بالنَّصرِ والإعانةِ والحِفظِ والتَّأييدِ، أسمَعُ كلامَكما وكلامَ فِرعَونَ، وأراكم وأرى أفعالَكم وأحوالَكم جميعًا؛ فاطمَئِنَّا ولا تخافا منه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل هذه الآية عمَّا قبلها:

الاستئنافُ البيانيّ، سرٌّ من البيان المُفصِح عنِ المعاني

فُصِل قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عمَّا قبله؛ لأنّه استئنافٌ بيانيٌّ مبنيٌّ على السّؤال النَّاشىء منَ النّظم الكريم[2]، وتقديره: (فماذا قال لهما اللّهُ تعالى بعد أن أعلنا له ما يجول بخاطرهما من خَوفٍ من عدم إتمام الدّعوة مع فرعون؛ بسبب طغيانه؟) فكان الجوابُ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ﴾ الآية.

دلالة إضمار الفاعل في قوله: ﴿قَالَ﴾:

الإشعار بانتقال الكلامِ إلى مساق خطابٍ من الله لموسى وأخيه

أوثِر إضمارُ الفاعل في قوله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ﴾، فلم يقل: (قال الله)؛ فالفاعل ضمير مستتر تقديره: (هو)، يعود على الله تعالى من سياق الكلام؛ ذلك لكونه سبحانه حاضرًا، فالحوار جارٍ بينَه سبحانه وبين رسولَيه عليهما السلام، كما يدلُّ عليه سياق الكلام، فلا حاجةَ إلى التّعبير بلفظ الجلالة مُظهَرًا في تركيب الجملة.

وممَّا يُذْكَر في سِرّ الإضمار ما قاله أبو السّعود: "لعلّ إسناد الفعلِ إلى ضمير الغَيبة؛ للإشعار بانتقال الكلام من مساقٍ إلى آخرَ، فإنّ ما قبلَه منَ الأفعال الواردةِ على صيغة التّكلم حكايةٌ لموسى عليه السلام، بخلاف ما سيأتي من قولِه تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 77، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 203.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 18.

﴿٦٨﴾ [طه: 68]، فإنّ ما قبلَهُ - أيضًا - واردٌ بطريق الحكاية لرسول الله ﷺ، كأنَّه قيلَ: فماذا قالَ لهما ربُّهما عند تضرُّعِهما إليه؟ فقيل: قال: ﴿لَا تَخَافَآ﴾"[1].

سِرّ حذفِ متعلّق ﴿لَا تَخَافَآ﴾:

دلالة السّياق الماضي على المحذوف، يُغني عن ذِكره بعدَ ذلك

حُذِف المتعلّق من قوله: ﴿لَا تَخَافَآ﴾؛ لكونه معلومًا مدلولًا عليه في الآية السَّابقة في قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، والتّقدير: (لا تَخافا حُصولَ شَيْءٍ مِنَ الأَمرَيْنِ)، وهوَ نَهْيٌ مُكَنًّى بِه عَنْ نَفْيِ وُقوعِ المَنْهيِّ عَنْهُ[2]، وفيه إشارةٌ إلى نفي الخوف على العموم، ويدخل في ذلك فرعونُ وحاشيتُه من باب الخصوص؛ لأنّ الله سبحانه يُعَلّم موسى وهارون كيفيّةَ مقابلةِ العقباتِ أيًّا كان نوعُها؛ لأنّه لا خوفَ يُذْكَر مع معيّة الله، ولذلك يكون الغرضُ منَ النّهي في قوله: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ التّسلّي بوعد الحِفظ والنُّصرة، فإنّه ليس المرادُ منَ المعيّةِ المعيّةَ المكانيّةَ، بل المرادُ منها ما يلزمها منَ الحِفظ والنُّصرةِ، فكأنّه قيل: إنّني حافظُكما وناصرُكما[3].

سِرّ فصل قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾:

الجملة التّعليليّة جوابٌ لسؤالٍ بليغٍ مُقدّرٍ في السّياق

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عمَّا سبق؛ لأنّه تعليلٌ للجملة السَّابقة، وهذا هو سِرّ الفصل بينهما، أي: لا تخافا؛ لأنّني ﴿مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وكأنّهما قالا: ولماذا لا نخاف؟ فكان هذا هو الجواب.

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿إِنَّنِي﴾ دون (أنّي):

تأكيد إظهارِ المعيّة لموسى وهارون، تشريفٌ لهما وتكريم

أظهرَ النّونَ الثّانية في قوله: ﴿إِنَّنِي﴾ للمبالغة، ولتأكيدِ معيّته سبحانَه لهما؛ جوابًا لشكواهما في قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 18.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 228.
(3) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 5/ 621.

عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، فيأتي الجبرُ على قَدْر ما يظهر منَ الكسر والضّعف[1].

دلالة التّعبير بالمعيّة في قوله: ﴿مَعَكُمَآ﴾:

العناية الإلهيّة والرّعاية الرّبانيّة، مظهرٌ من مظاهر المَعيّة

دلّ التّعبير بالمَعيَّةِ في قوله: ﴿مَعَكُمَآ﴾ على حِفْظ اللّه ونصرته[2] لموسى وهارون من بطش فرعون، وفيها تثبيتٌ وتأييدٌ لهما في بلاغ دعوتهما عنِ اللّه ﷻ، وعنايةٌ ورعايةٌ من كلّ المخاطر.

سِرّ إدخال هارون في المعيّة مع أخيه موسى:

تبشير هارون بدخوله في معية الله، من تكريم الله لهما معًا

دلّ إدخالُ هارونَ في المعيّة مع موسى ﷺ، على أنّهما شريكان في الرّسالة، فكلاهما مرسلٌ إلى فرعون، فيَحِقّ لكليهما التّبشيرُ بهذه المعيّة المستحقّة لهما.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾:

ثبوت صفتي السّمع والبصر لجلال الله المحيط بكلّ شيءٍ علمًا

دلّ التّعبير بقوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ على ثبوت صفتي السّمع والبصر للّه تعالى، فهو (السّميع البصير)، وأنّهما صفتان زائدتان على العلم[3]، المأخوذِ من قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾، والمراد من التّعبير بهما ما يترتّب عليهما منَ الرّعاية والحفظ، فيكون قوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ تأكيدًا للمعيّة والحفظ، قال الفخر الرّازيّ: "وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِه: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، فبَيَّنَ ﷻ أَنَّهُ مَعَهُما بِالحِفْظِ والعِلْمِ في جَميعِ ما يَنالُهُما، وذَلِكَ هوَ النِّهايَةُ في إزالَةِ الخَوْفِ"[4].

ويجوز أن يكون التّعبير بهما في مقابلة قوله تعالى: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾؛ فقوله: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ بأن لا يسمع منّا، ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ بأن يقتلنا؛ فقال اللّه تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ أسمع

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 291.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 18، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 54، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 228.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 54.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 54.

كلامكما، فأُسخِّرُه للاستماع منكما، وأرى أفعالَه فلا أتركه حتّى يفعلَ بكما ما تكرهانه[1].

سِرّ تقديم السّماع على الرّؤية:

بيان أنّ وظيفة السّمع سابقةٌ علميًّا على وظيفة البصر

قُدِّم السّمع على البصر في آياتٍ كثيرةٍ في القرآن الكريم، وذلك في حقّ الإنسان، وعُلّل ذلك بالسّبق الزّمنيّ لوظيفة السّمع على وظيفة البصر، ووجد في كلام العلماء الكثيرُ من أسباب تقديم السّمع على البصر، "وفَصْل الخطاب: أنّ إدراك السّمع أعمُّ وأشمل، وإدراك البصر أتمّ وأكمل، فهذا له التّمام والكمال، وذاك له العمومُ والشّمول، فقد ترجّح كلٌّ منهما على الآخر بما اختصَّ به"[2].

أمّا في حقّ المولى ﷻ؛ فتقديمُ السّمع على الرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ هو من باب مراعاة الحدث، كما هو في مشهد موسى وهارون؛ فأمرُ الدّعوةِ يبدأ بالقول فيناسبه السّمع، والرّدُّ من فرعون فعلٌ، فيناسبه الرّؤيا الرُّؤية.

سِرّ حذف متعلّق ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾:

أهميّةُ تنزيل الفعلين (أَسْمَعُ وأَرَى) منزلةَ اللّازم

حُذِفَ متعلّقُ ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾؛ تنزيلًا للفعلين "﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ مَنْزِلَةَ اللَّازِمَيْنِ، إِذْ لا غَرَضَ لِبَيانِ مَفْعولِهما، بَلِ المَقْصودُ: أَنّي لا يَخْفَى عليَّ شَيْءٌ"[3]، وتقدير الكلام: أسمع كلامَكما، وأرى أفعالَكما، ويجوز أن يكون التّقدير: (أسمع جوابَه لكما، وأرى ما يُفعل بكما)[4].

دلالة التّعبير بالفعليّة دون الاسميّة:

سمعُه المُتجدّد في كلّ حال، دافعٌ لكلّ ضُرٍّ، وجالبٌ لكلّ بِرٍّ

عبّر القرآن الكريم بالفعليّة ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ دون الاسميّة؛ لأنّ التّعبير بالفعليّة هنا يُشير إلى هذا الفعل المستمرّ الملازم لهما،

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 258.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد، ص: 126.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 228.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 258.

والمُتجدّد في مظاهره بحسب ما يستدعيه المقام، وبحسب ما يتجدّد من معاملة فرعون لكما، فمهما دبَّر فرعون لكما، فأنا ﴿مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، "أي: ما جرى بينَكما وبينَه من قولٍ وفعلٍ، فأفعلُ في كلّ حالٍ ما يليق بها من دفع ضُرٍّ وشَرٍّ، وجَلْبِ نفعٍ وخير"[1].

دلالة الجمع بينَ السّمع والرّؤية:

تأكيدُ الحفظ الخاصّ للفعل المرئيّ، والقول المسموع

جُمِع بينَ السّمع والرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾؛ لأنّ ما يدور بين موسى وهارون من جهة، وفرعونَ من جهةٍ أخرى، يدور بين القول، فيناسبُه السّمع، والفعل ويناسبه الرّؤية، وعلى هذا، يكون المعنى: (أَنا حافِظُكُما مِنْ كُلِّ ما تَخافانِه)[2]، حفظًا خاصًّا مُستمرًّا؛ طالما كنتما عند فرعون تدعوانه، وهذا غير الحفظ العامّ المكفول لهما، بمقتضى كونهما رسولين لله.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّؤية والإبصار:

الإبصار عمل العين المُبصرة، والرّؤية أوسع، فتكون بصريّةً وتكون علميّةً

البَصَر يقال للجارحة النَّاظرة، وهي العين، وللقوّة التّي فيها[3]، والإبصار هو فعل العين، ويقال له رؤيةٌ أيضًا، غيرَ أنّ مفهوم الرّؤية قد يتّسع لما تتّسع له كلمةُ العلم، فتكون الرّؤيةُ علميّةً، والحاصل: أنّ الإبصار يكون لما يقع تحت حاسّة العين، والرّؤية تكون لها، وتكون أيضًا بمعنى العلم، ولذا فالتّعبير بالرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أوسع وأشمل؛ لاتّساع لفظ الرّؤية وشموله لما يكون علمًا، وعلى هذا: فالرّؤية هي الأعلى؛ لأنّها تتميّز بالعِلْم بالشّيء، إمَّا بالعين أو بالقلب؛ بخلاف الإبصار، فيتميّز بوضوح الشّيء المنظور إليه، كما ذُكِر ذلك في المعاجم اللّغويّة.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 18.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 228.
(3) الرّاغب، المفردات: (بصر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»